شاعرنا العــــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تمهيد :

الشعراء العالميون فى شعراء العربية قليلون ، وإنهم ليبلغون من القلة بحيث إنك لا تكاد تبلغ بهم عدد أصابع اليد الواحدة، وهذا بينا ترانا الآن نعرف من أسماء شعراء أوربا فى هذا العصر أكثر مما نعرف من شعرائنا الأقدمين ، وندرس من شعرهم وأدبهم أكثر مما ندرس من الشعر والأدب العربيين ، حتى أصبح الشعر والأدب الأوربيان فتنة شبابنا الناشئين ، يكلفون بهما أكثر مما يكلفون بشعرنا وأدبنا ، ويصرفون جل أوقاتهم فى دراستهما ، وتعرف طرائقهما حتى ظهر أثر هذا فى شعرهم ، وصرنا نرى بهذا فى الشعر العربى أساليب كثيرة ما كان يعرفها من قبل ، ومعانى جديدة تغزوه كما يغزونا أصحابها برجالهم وأسلحتهم ، وأموالهم ومصنوعاتهم

وربما يكون أبو العتاهية أول شاعر عربى بلغ هذه المنزلة الشعرية العالية ، وكان له شعر عالى تتسابق الأمم المختلفة اللغات إلى روايته ودرسه ، وترجمته إلى لغاتها وإذاعته فى بلادها . قال أبو الفرج : أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد الأسدى إجازة قال : حدثني الرياشي قال : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد ، فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئاً من شعره ، وكان يحسن العربية ، فمضى الى ملك الروم وذكره له ، فكتب ملك الروم إليه ، ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن من أراد ، وألح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك ، فاستعفى منه وأباه ، واتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما :

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجومُ السماء فى الفَلك
إلا لنقل السلطان عن مَلِك قد انقضى مُلكُه إلى مَلِك

وهما فى الحق بيتان جديران بأن ينالا مثل هذه العناية من ملك الروم ، فما أحسنهما عظة بالغة ، وما أصدقهما حكمة نافعة ، وما أجمل أسلوبهما فى سهولته وامتناعه ، ولكن علماءنا جازاهم الله لا يقدرون من هذا ما قدره ملك الروم لأبي العتاهية ، وقد ينظرون إلى هذين البيتين إذا قرأوهما إلى صناعتهما اللفظية ، ولا يهمهم منهما هذا المعنى الجليل الذى عنى به ملك الروم ، وربما يعيبونهما بما يسمونه التضمين الذى عابوا به بيتى النابغة الذبيانى :

وهُمْ وردوا الجِفارَ على تَميم وهم أصحاب يوم عُكاظَ إنِّى
شهدتُ لهم مَواطِنَ صادقات شَهِدْنَ لهم بحسن الظن منى

والتضمين عندهم هو تعليق قافية بيت بما بعده بحيث لا يتم الكلام إلا به ، وهذا بأن يكون جواب شرط أو خبراً أو نحوهما لا نعتاً أو نحوه من التوابع والفضلات ، فلا يرضيهم إلا أن يكون لكل بيت من القصيدة وحدة مستقلة عن البيت الذى قبله ، والبيت الذى بعده ، ولا يكفيهم أن تكون القصيدة كلها وحدة يصح أن تتصل أبياتها بمثل هذا التضمين الذى يعدونه من عيوب القافية ، ويصح ألا تتصل به إذا اتصلت بأمر آخر غيره ، وربما يكون اتصال أبياتها بمثل هذا خيراً من تقاطعها وتباعدها ، والاكتفاء فى الربط بينها إذا عنى به بمثل قولهم (دع ذا أو عد عن ذا)

وقال أبو الفرج : أخبرنى عيسى بن الحسين الوراق ، وعمى الحسن بن محمد وحبيب نصر المهلبي ، قالوا : حدثنا عمر بن شبة ، قال : مرّ عابد براهب فى صومعة فقال له : عظنى ، فقال : أعظك وعليكم نزل القرآن ، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم قريب العهد بكم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ؟ قلت : نعم ، قال : فاتعظ ببيت من شعر شاعركم أبي العتاهية حين يقول :

تجرد من الدنيا فانك إنما وقعت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكلا هذا وذاك يثبت لنا من أبي العتاهية شاعراً عالياً نباهى به من يباهينا بشعرائه العالميين فى القديم والحديث ، على قلة هذا الصنف من الشعراء عندنا ، وندرة الشعر العالى فى شعرنا ، ويهمنا الآن أن ندرس العوامل التى كان لها أثرها فى هذا الأمر إلى ظهور شاعرنا أبي العتاهية ، لنعرف كيف ظهر فى الشعر العربى بهذا المظهر ، ونعرف حال العصر الذى نشأ فيه ، وكيف كان أثره فى شعره

يجرى مؤرخو الآداب العربيـة على أن الصناعة البديعية لم تظهر فى الشعر العربى ، ولم يكلف بها شعراء العرب إلا فى العصر العباسى ، بعد ظهور أبى تمام وأضرابه من الشعراء الذين حذوا فى ذلك حذوه ، واستنوا فيه سنته ، ثم زادوا عليه فيـه حتى جعلوا من الشعر صناعة لفظية ، لاتنطوى على معنى جليل ، أو غرض نبيل ، وإنما هى ألفاظ جوفاء لاطائل تحتها ، ولا تهم الناس فى أمر دينهم أو دنياهم

أما أنا فأرى فى هذا ما يخالف رأيهم فيه كل المخالفة ، أرى أن الصناعة البديعية كانت موجودة فى الشعر قبل الاسـلام ، وأرى أن الشعراء قبله كانوا يقصدون إليها فى شعرهم ، ويتكلفونها فيه كما تكلفها فيه أبو تمام ومن أتى بعده ، وإن أربوا فى ذلك عليهم ، وقصدوا اليه أكثر منهم ، وأرى أن أبا تمام لم يفعل إلا أن جدد هذه السنة ، ونهج فى شعره على منوالها ، بعد أن كاد الشعراء العباسيون قبله يسلكون بالشعر مسلكا جديداً يخالف هذا المسلك ، ويتلاءم مع العصر الذى ظهروا فيـــه كل الملاءمة

وكان امرؤ القيس أول من عنى بالصناعة البديعية فى الشعر العربى ، فتكلف منها مالم يتكلفه أحد قبله ، وتزاحمت فى شعره الكنايات والمجازات والتشبيهات والاستعارات وما إليها ، فكل هذا من الصناعة البديعية ، واسم البديع يشمل عند القدماء التشبيه مثلاً ، كما يشمل المقابلة والجناس ونحوهما

وقد ضاع أكثر شعر القدماء قبـل امرىء القيس ، فلا نعرف مقدار ما كان فيه من تلك الصناعة ؛ والذى نرجحه أنه كان لايخلو منها ، ولـكن الذى كان يغلب عليه العنـاية بالمعانى الأصلية ، فكانت تظهر فيه على فطرتها فى غير تصنع ولا تكلف ولا اجتهاد فى تحسين ، يأتيها بتصرف الخيـال فيها بتشبيه أو كناية أو نحوهما

وغاية ما ذكره علماء الأدب فى ذلك أن القدماء قبل امرىء القيس كانوا يقولون فى المرأة الحسناء : « أسيلة الخد ، تامة القامة أو طويلتها ، جيداء أو طويلة العنق ، » فقال امرؤ القيس فى هذا : أسيلة مجرى الدمع ، بعيدة مهوى القرط ، وكانوا يقولون فى الفرس : يلحق الغزال ، ويسبق الظليم . فقال امرؤ القيس فيه : (مِكَرٍّ مِفَرٍّ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ) ، ولا يكادون يجاوزون هذا فى بيان الفرق بين حال الشعر العربى قبل امرىء القيس وحاله بعده

وقد شغف الشعراء بعد امرىء القيس بصناعة البديع فى شعرهم ، وكانت حياتهم البدوية تضيق بهم ، وتضيق بعقولهم وأفكارهم ، فوقفوا بالشعر العربى عند معان محدودة ، متأثرة فى ضيقها وعدم اتساعها ، وقلة أثر العقل المثقف فيها بضيق تلك الحياة ، وقلة أثر الثقافة فيها ، وأخذوا يدورون حول تلك المعانى كما تدور الرحى حول محورها ، لايتصرفون فيها إلا بتشبيه أو استعارة ، أو مجاز أو كناية ، أو نحو هذا من تلك الصناعة التى تنافسوا فيها ، حتى وصلوا بها فى سجع كهانهم الى آخر حدودها ، فكان لهم فيه سجع متكلف مرذول ، لايقل قبحاً فى تكلفه عن السجع الذى تكلف بعد الاسلام فى آخر العصر العباسى ، إلى أن ظهرت هذه النهضة الحاضرة

ثم جاء المتأخرون من شعراء هذا العصر ، فزادوا الطين بلة ، واتخذوا الشعر تجارة ، وتكسبوا به فى المدح والهجاء ، وداروا به فى تلك المعانى لايكادون يتجاوزونها ، أو يحسنون شيئاً سواها ، فساء أثر هذا الشعر فى الأمة العربيـة ، وصار شعراؤه معاول هدم فى بنائها ، وقد جمدوا على ما ألفوه من هذا جمودَ أمتهم على أوثانها وأصنامها

وفى وسط هذا الجمود الأدبى ، وذلك الضيق الفـكرى ، ظهر الاسلام يدعو العرب إلى دين يأخذ بهم من عزلتهم ، فى هذا الضيق وذلك الجمود ، إلى معترك الحيـاة الذى تتلاقى فيـه الشعوب ، وتجتمع متنافسة فى وسائل الرقى والنهوض ، فحاربه أولئك الشعراء وحاربهم ، لأنهم رأوا فيه خطراً على ما جمدوا عليه فى صناعتهم ، ورأيهم هو من الجمود وضيق الفـكر بحيث لايصلحون ولايتفق شعرهم مع دعوة هذا الدين الجديد ، ورأى أنه لايتفق معه إلا أدب مثقف يعنى فيه بالمعانى الأصلية السامية ، أكثر مما يعنى بتلك الصناعة التى تضيع فيها تلك المعانى ، ويتلاعب فيها بما يسمونه المعانى الثانوية التى لايصح أن تؤثر فى حال من الأحوال على المعانى الأصلية ، ولاشك أنه كلما أوغل الشعر والأدب فى إيثار تلك الصناعة بعـدا عن هذه الغاية

السامية التي يراد لها فيها أن يتفقا مع هذا الدين ، فيكونا للبشر كافة ، لا للعرب خاصة ، ولا تقف تلك العناية حائلاً دون فهم الناس لها ، أو العناية فيهما بما يعنيهم منهما

فاذا أردت أن تعرف نظر الاسلام إلى ما كان عليه الشعر والأدب العربي من هذا كله إبان ظهوره ، فانظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال له بعضهم يتشادق في كلامه تشادقهم : « يارسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم منكراً لهذا منه : أسجع كسجع الجاهلية ؟ » وانظر إليه صلى الله عليه وسلم يفتخر بنشأته على بغض هذا الشعر فيقول : (لما نشأت بُغِّضت الى الأوثانُ وبغض إلى الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله . الحديث) . وانظر إلى قوله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ، وقوله أيضاً في سورة الشعراء : (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

وقد انقضى عهد النبوة وعهد الخلافة في محاولة إصلاح الأدب العربي ، والوصول بالشعر الى تلك الغاية النبيلة . ثم جاء بعد هذين العهدين عهد بني مروان ، وهم من بني أمية الذين كانت تغلب عليهم النَّعَرَةُ العربية ، لما كان لهم قبل الاسلام من الزعامة في قريش ، وهذه النعرة هي التي وقفت بهم على رأس المناوئين للدعوة العامة التي أتى بها الاسلام ، حتى أنهم لم يسلموا إلا بعد فتح مكة والسيف مُصْلَت على رؤوسهم ، وهي التي تأثروا بها في سياستهم حينما آل أمر المسلمين إليهم ، فرجعوا بالشعر الى نَعَرته العربية ، وحولوه عن وجهته الانسانية التي أخذ يسير فيها على عهد النبي وخلفائه الراشدين

فوقف لهم بنو عمهم من بني هاشم ، قوم النبي وعشيرته الأقربين ، وهم الذين كانوا أول من بادر الى الايمان بدعوته ، وفهموا حقيقة ما يدعو إليه ، وعرفوا أن هذا الدين للبشر عامة ، لا للعرب خاصة ، وأنه لا يصح أن يكون فيه فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)

وعلى هذا قامت الدعوة العباسية الهاشمية ، فنشأت دولة إسلامية محضة ، وكانت للعرب كما كانت للفرس وللقبط وللبربر وللترك ولغيرهم من الشعوب التي دانت للاسلام ، وقليل من الناس من يفهم كما نفهم كيف قامت هذه الدعوة ، وأنها كانت ثورة دينية سياسية أدبية ، قام بها العباسيون ومن ناصرهم من الفرس وغيرهم ، وأن غايتها كانت إقامة دولة للمسلمين لا للعرب خاصة ، وانتهاج خطة جديدة تأخذ فيها بيد كل الشعوب التي دانت للاسلام ، لتشترك في بناء الوحدة الاسلامية ، وقد كان لهذا أثره العظيم في الدين والعلم والأدب والشعر ، إذ أخذ العلماء من كل الشعوب يشتركون في بناء هذه الوحدة ، وأخذ الأدباء والشعراء يقضون في الأدب والشعر على تلك النَّعَرَة العربية ، ويعملون على تسهيل الشعر للناس ، وتقريبه لتلك الشعوب الأعجمية التي رفعت رؤوسها في تلك الدولة ، وكان أكثر أولئك الشعراء من أصل غير عربي ، فانتهزوا فرصة قيام دولة العباسيين وإنصافها لهم ، وقاموا بثورتهم الأدبية في عنف وشدة ، حتى صاروا في الشعر أعلام هذه المدة من العصر العباسي ، وضعف شأن الشعراء الذين كانوا من أصل عربي ، إذ جمدوا في شعرهم على نعرتهم العربية ، وعنايتهم بتفخيم لفظ الشعر وتجويد صناعته أكثر من عنايتهم بتثقيفه وتهذيبه ، والتفنن في معانيه وأغراضه ، وقد عاد شأن هؤلاء الشعراء إلى الظهور حينما ظهر أبو تمام والبحتري وأضرابهما من الشعراء الذين تأثروا بأصلهم العربي ، وأخذوا يعودون بالشعر إلى سنته القديمة

ولعل هذا الاسم (عصر الثورة العباسية) هو الاسم الذي يجدر أن تسمى به تلك المدة من ذلك العصر ، فهو خير مما يسمونها به (صدر الدولة العباسية) وكثير منهم لا يراعي ما يمتاز الأدب به في هذه المدة عما بعدها من هذا العصر ، فيجعل العصر العباسي كله عصراً واحداً ، ويجري في هذا على ما كانوا يعتادونه من تقسيم عصور الأدب العربي إلى أقسام سياسية محضة ، تتبع قيام الدول العربية وسقوطها ، ولا تتأثر بغيرها في بدئها ونهايتها ، وقد كان أعلام الشعر في هذه المدة هؤلاء الشعراء الثلاثة ـ بشار ـ أبو نواس ـ أبو العتاهية ـ فلنوازن بينهم فيها ؟

عبد المتعال الصعيدي